الدور التعبوي لفقهاء الشام خلال الحروب الصليبية في العصر الايوبي

د/حسناء محمود الدمرداش
جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا

الملخص

مارس الفقهاء دورهم القيادي والتعبوي في المقاومة التي سادت اهل الشام في العصر الايوبي استنادا إلى استشعارهم وفهمهم لركن الجهاد الذي رسخه الإسلام كمفهوم أساسي وواجب على جميع المسلمين عالمهم و جاهلهم .انضم الفقهاء للجيش الإسلامي كمتطوعين ، فضربوا القدوة والمثل الصالح في الجهاد لعامة المسلمين وخاصة في معركة تحرير مدينة القدس تحت قيادة البطل صلاح الدين الأيوبي

المقدمة

تعد هذه الفترة من الفترات الدقيقة والمهمَّة في تاريخنا الإسلاميِّ؛ فهي تشكِّل إحدى التجارِب المهمة في تاريخ العرب والمسلمين، كما أنَّه لا تزال آثار هذا الغزو الصَّليبيِّ ماثلةً للعِيان؛ فالعالَم الإسلاميُّ ما يزال يُعاني إلى اليوم من الهجمات الصَّليبيَّة، وأيضًا فإنَّ العديد من الحروب الصليبيَّة وظروفها قد يُقدِّم لنا درسًا مفيدًا؛ لكون قيامها كان في وضع يشبه وضعنا الحالي من نواحٍ عدَّة.(١)

فقد تكالبت الجموع الصليبيَّة على العالم الإسلاميِّ، وكان هدفها الرئيسي والمعلن هو الاستيلاء على الأراضي المقدَّسة، وبناء ممالك صليبيَّة على الأراضي الإسلاميَّة، وقد حقَّقوا الكثير من تلك الأهداف، والتي لم يكونوا ليستطيعوا تحقيقها لولا تفكُّك المسلمين، وتشرذمهم، سواء بانقسام الدولة الإسلاميَّة إلى خِلافتين: عباسيَّة، وفاطميَّة (عُبَيديَّة)، أو تعدُّد الزِّعامات الصَّغيرة، والتي كان يحاول كلٌّ منها إنشاء دويلة مستقلَّة، والتي نتج عنها ظهور دويلات، وإمارات متعدِّدة بالفِعل، وكذلك كثرة الحروب والتناحُر بين المسلمين في تلك الحِقبة الزَّمنيَّة.(٢)

كما كان لظهور الحركات الباطنيَّة الهدَّامة الأثر الواضح في زيادة التفكُّك في الأمَّة الإسلاميَّة؛ فقد أخذت هذه الحركات تُنشئ التنظيمات السِّريَّة، وتجمع حولها الأتباع، وتبثُّ بينهم الأفكار المنحرِفة عن الإسلام، وقد كان لهذه الحركات الباطنيَّة دَور مهمٌّ في أحداث

التاريخ الإسلاميِّ، خاصَّةً في عصر الحروب الصَّليبيَّة، حيث أسهمتْ بشكل واضح في عرقلة سَير حركة الجهاد الإسلاميِّ ضدَّ الصَّليبيِّين.(٣)

بدأ الصليبيين بالوصول إلى مشارف بلاد الشام بعد أن نجحوا في احتلال مدينة نيقية في يونيو سنة ٤٩١هـ /١٠٩٧م ، وبعد أن تخطى الصليبيون جبال طوروس تمكن بلدوين الاول(١٠٥٨-١١١٨م)-

أحدقادةالحملةالصليبيةالأولىومؤسسامارةالرهاوثانيملوكمملكةبيتالمقدس- الذي اتجه صوب المنطقة الشرقية من احتلال إمارة الرها في أوائل سنة٤٩١هـ / ١٠٩٨م ، وأقام أول حكومة لاتينية فيها ، وفي الوقت نفسه وصلت الحملة الصليبية إلى أنطاكية ، واستطاعوا احتلالها بعد حصار دام عدة أشهر بمساعدة الأرمن .(٤)

ثم واصل الصليبيون زحفهم باتجاه بيت المقدس ،حيث ارتكبوا المذابح والمجازر في كل مدينة أو قرية كانوا يمرون عليها ، من هذه المذابح ما فعلوه في مدينة معرة النعمان عام ٤٩١هـ /١٠٩٧م ، فقد أحدثوا مذبحة راح ضحيتها الآلاف، إلى أن وصلوا إلى مشارف مدينة القدس في السابع من يونيو ٤٩٣هـ / ١٠٩٩م ، واخذوا في فرض حصار شديد عليها ، وأعدوا عدتهم للهجوم علي المدينة من جهة الشمال . (٥)

وكانت هذه المدينة من أمنع الحصون في العصور الوسطى ، واهتم حكامها جميعاً بتعمير أسوارها وإصلاحها ، فكانت الخنادق تحيط بها من جهاتها في الشرق والجنوب والغرب ، سوى الطرف الجنوبي الغربي ، حيث يقطعها الجبل ، لهذا لم يتيسر الهجوم على المدينة إلا من هذا الطرف . (٦)

وكان يحكم المدينة آنذاك الفاطميون الذين سبق وان نجحوا في طرد السلاجقة منها قبيل مجيء الصليبيين ، وكان المدافعون عن المدينة عبارة عن حامية مصرية سودانية ، وكانت أسوار المدينة مزودة بالجند من بين سكان المدينة المحتشدين .(٧)

وقد أسهب المؤرخون في ذكر ما تعرضت له المدينة المقدسة من دمار وسفك للدماء ونهب وسلب فاق كل تصور بعد أن اقتحم الصليبيون المدينة وأعملوا فيها سيوفهم ، راح فيها من الشهداء ما يزيد على السبعين ألف شخص، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف .." وقد افتخر بعض

الصليبيين بما ارتكبوا في المسجد الأقصى من قتل المسلمين في مذبحة وحشية رهيبة ثم حرق الجثث بعد أن جمعوها في أكوام بلغت ارتفاع البيوت " فلم يشاهد أحد قط أو يسمع عن مثل هذه المحرقة.(٨)

بل إن أحد المؤرخين المعاصرين قال " إن بيت المقدس شهد عند دخول الصليبيين مذبحة رهيبة حتى أصبح البلد مخاضة واسعة من دماء المسلمين أثارت خوف الغزاة واشمئزازهم " كذلك ذكر مؤرخ صليبي حضر تلك الأحداث وشاهدها فقال انه عندما زار الحرم الشريف أثناء المذبحة الرهيبة التي ارتكبها الصليبيون فلم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء المسلمين إلا بصعوبة بالغة وان دماء القتلى بلغت ركبتيه ، وكان الصليبيون لا يفرقون بين المقاتلين والعزل من النساء والشيوخ والأطفال ، فقد خرجوا عن طورهم الآدمي " وكان من أحب ضروب اللهو إليهم قتل من يلاقون من الأطفال وتقطيعهم إرباً إرباً وشيهم .(٩)

ونذكر هنا شهادة المؤرخ الراهب التقي روبرت الذي كان من الصليبيين الذين دخلوا بيت المقدس فيقول " كان قومنا يجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل ، وذلك كاللبؤات التي خطفت صغارها ، وكانوا يذبحون الأولاد والشبان والشيوخ ويقطعونهم إربا إربا ....وكان قومنا يقبضون على كل شيء يجدونه ، فيبقرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعا ذهبية .. وكانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجثث ، فيا لتلك الشعوب العمي المعدة للقتل ... ثم أحضر بوهيمند الاول (النورمندي)- امير انطاكية ١٠٩٨-١١١١م- جميع الذين اعتقلهم في برج القصر ، وأمر بضرب رقاب عجائزهم وشيوخهم وضعافهم وبسوق فتيانهم وكهولهم إلى أنطاكية لكي يباعوا فيها " .(١٠)

قال كاهن مدينة لوبوي ريمون داجيل : " حدث ما هو عجيب بين العرب عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبروجها فقد قطعت رؤوس بعضهم ، فكان هذا أقل ما يمكن أن يصيبهم وبقرت بطون بعضهم ، فكانوا يضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار ، وحرق بعضهم في النار ، فكان ذلك بعد عذاب طويل ، وكان لا يرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم ، فلا يمر المرء إلا على جثث قتلاهم ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ما نالوا .. " . (١١)

دورفقهاءوعلماء الشام في تعزيز الوحدة خلال الحملات الصليبية:

ركزت السلطة السلجوقية على الاهتمام بعلماء الشام من أهل السنة لتحقيق التغطية المذهبية بشتى الوسائل، وبرغم توجهها الحنفي فلم تعمل على إقصاء المذاهب الأخرى بما فيها المذهب الشيعي مع حرصها على حماية السنة. وقد تمثل ذلك في الدور الكبير الذي لعبته هيئة علماء الشام في التصدي للفكر الإسماعيلي الباطني بعد أن عجزت السلطة القائمة عن التصدي لشرورهم التي استفحلت خاصة في دمشق وحلب، وفي سنة ٥٢٣هـ قامت العامة بتحريض من علماء الهيئة بقتل الباطنية في دمشق وما حولها بعد أن زادت شرورهم وخامر معهم الوزير المزدقاني وزير السلطان تاج الملوك بوري، فقتلوا منهم عشرة آلاف في مقدمتهم الوزير الخائن(١٢).

وعندما آل الأمر إلى الأسرة الزنكية زاد الاهتمام ببناء دعائم الوحدة السياسية والمذهبية بمؤازرة علماء الشام، وكان لبناء المدرسة النورية للحديث ورئاسة الحافظ الكبير ابن عساكر لها أثر كبير، وحماية لدور العلماء الديني والتعليمي من بطش الأمراء وكبار الدولة. وقد بنى السلطان نور الدين داراً للتقاضي أسماها «دار العدل»، كان يجلس فيها بنفسه للقضاء بين الناس وذلك بإيعاز من القاضي كمال الدين الشهروري(١٣)، يقول أبو شامة: «كان نور الدين لا يخالف العلماء في أمر من أمور الشرع، وحفظ أصول الديانات، لا يمكن لأحد من الناس إظهار ما يخالف الحق، ومتى أقدم مقدم على ذلك أدبه بما يناسب بدعته، وكان يبالغ في ذلك، حتى إنه كان يأمر بتشهير المبتدعين وتجريسهم في البلاد لقمع بدعهم»[(١٤)

وعلى درب نور الدين سار صلاح الدين، فقد حافظ على موروثه نحو تحقيق الانسجام السياسي والمذهبي ليس في الشام وحدها ولكن في مصر والشام معاً، وأخذ الأيوبيون مهمة تنفيذ المشروع الزنكي نحو إعلاء شأن هيئة العلماء والفقهاء وتشجيعهم نحو أداء دورهم الديني والتعليمي لتأسيس قاعدة ردع وصيانة من التيارات العقدية المخالفة، حتى إن أكبر أعوان صلاح الدين كان القاضي الفاضل المعروف بانتسابه إلى العلم والعلماء، وقد باشر صلاح الدين أدوار نور الدين نفسها، حتى إنه قد فاقه في بعض الأمور، فقد أمر ابنه الظاهر غازي أمير حلب بقتل الصوفي الغالي شهاب الدين السهروردي بسبب ضلالاته وذلك بتحريض من العلماء والفقهاء(١٥).

جهود فقهاءوعلماء الشام في مواجهة الغزو الصليبي:

لم تتوقف جهود علماء الشام عند الدعوة لبناء وحدة سياسية ومذهبية في بلاد الشام ومصر، بل تعدتها إلى التضافر مع السلطة القائمة في مواجهة العدوان الصليبي لقرنين من الزمان؛ الحكام بالسيف والسنان، والعلماء بالقلم واللسان، حيث كان للعلماء دور كبير في تأجيج الحماسة وحشد الناس لمواجهة العدو الصليبي وتعزيز روح الجهاد في النفوس من أجل الارتقاء لمستوى المواجهة الشاملة.(١٦)

ولم يقتصر دور علماء الشام على الوعظ والتحريض على الجهاد فحسب، ولكن امتد للمشاركة الفعلية في الجهاد ضد الصليبيين، ويذكر مؤرخ دمشق ابن القلانسي أصداء الهجوم الصليبي وهو على أبواب القسطنطينية سنة ٤٩٠هـ وظهور نيتهم باحتلال بيت المقدس وكيف أن علماء الشام تقاطروا على بيت المقدس للدفاع عنه، في حين توجهت مجموعة منهم إلى أنطاكية التي كانت أقرب باب للهجوم الصليبي، وذكر دور فقيه دمشق وقاضيها الحسين بن الحسن الشهرستاني الذي قاد جموع المجاهدين لنجدة أنطاكية من الصليبيين، وكيف أنه كان من أوائل الشهداء في هذا اليوم المجيد(١٧)،

وقد قرر الكثير من علماء الشام المرابطة في بيت المقدس للدفاع عنه، وقد قتل منهم المئات في المجزرة الشهيرة بالمرابطين أمام بيت المقدس يوم سقوطه بيد الصليبيين في شبعان سنة ٤٩٢هـ منهم شيخ الشافعية أبو القاسم الرملي(١٨)، وقد قام قاضي دمشق أبو سعد الهروي بدور السفارة لربوع العالم الإسلامي لتحريض الناس على نجدة بيت المقدس وبلاد الشام، وقد استجاب علماء وفقهاء العراق لدعاوى نصرة بيت المقدس، فخرج القاضي أبو محمد الدامغاني، والفقيه الكبير أبو بكر الشاشي، والزنجاني، وشيخ الحنابلة أبو الوفاء ابن عقيل، وغيرهم من علماء الإسلام لنجدة الشام، ولكن استيلاء الصليبيين على خطوط الإمداد قطع الرحلة إلى الشام عن هؤلاء العلماء(١٩)، ومن أبرز ما كتب في هذه الفترة للتحريض على الجهاد وذكر أسماء العلماء والفقهاء المشاركين في التصدي للحملات الصليبية والتحليل الدقيق لواقع بلاد الشام والخلافة الإسلامية؛ كتاب «الجهاد» للفقيه الشافعي علي بن طاهر السلمي الشافعي(٢٠).

وعندما هجمت الحملة الصليبية الثانية على دمشق سنة ٥٤٣هـ كان علماء الشام في الصفوف الأولى للمدافعين عن المدينة وكانت كتيبة العلماء المجاهدين بقيادة شيخ المالكية الإمام يوسف الفندلاوي وكان شيخاً هرماً حاول أمير دمشق معين الدين أنر أن يمنعه من الجهاد ولكنه رفض وقال كلمته الشهيرة «قد بعت وقد اشترى»، يقصد روحه وربه، وبالفعل كان في أوائل الشهداء في المعركة. (٢١).

ومن أكبر وأكثر الأسر المجاهدة في حقبة الحروب الصليبية ممن ينتسب إلى العلم والفقه آل قدامة المقدسيون وخاصة الموفق صاحب المغني وأخوه أبو عمر ومعهم بنو سرور الحنابلة في جماعيل وجبل قاسيون الذي أصبح أكبر رباط للمجاهدين في الشام، وقاعدة انطلاق وتخريج للعلماء المجاهدين طيلة الحملات الصليبية.(٢٢)

كان للفقهاء والعلماء دور فاعل في التعبئة والمقاومة ضد الصليبيين، وهذا الدور لا يقل بل يزيد على ما قام به الجنود المحاربون لمقاومة الغزو الصليبي، فحمل السلاح لم يكن هو الوسيلة الوحيدة التي استخدمها الفقهاء والعلماء في المقاومة الشعبية ضد المحتلين بل كان للوعظ والإرشاد والحث على الجهاد والتحريض والتوعية المستمرة بين الجنود، ومشاركتهم، وتبيان فضل الجهاد والمجاهدين عند الله، وشحذ الهمم والتشجيع والخطابة الدائمة فيهم، وتلاوة القرآن الكريم، كل ذلك كان له أكبر الأثر في تعزيز المقاومة وحثها للالتفاف حول الزعماء والقادة.(٢٣)

وقد وقف الفقهاء والعلماء بجانب القادة في المعارك يذكرونهم، ويعلمونهم ويفقهوهم أحكام القتال، والفئ والغنائم، لذلك كان دورهم أهم وأعمق وأدق.(٢٤)

اتخذ هؤلاء الفقهاء والعلماء من المساجدمكاناً خاصاً للقيام بهذا الدور، الذي لم يكن مقصوراً على الصلاة وأداء الشعائر الدينية فحسب، وإنما كان مكان مشاوراتهم، والمكان الذي ينطلق منه المقاومون والمحاربون في سبيل الله.(٢٥)

وكانت بداية المقاومة لتلك الفئة؛ من مدينة القدس فبعد اجتياح الصليبيين الفرنجة للمدينة جاسوا خلال الديار، وانطلقوا في شوارعها وبيوتها ومساجدها يقتلون كل من صادفهم من الرجال والنساء والأطفال ولبث الإفرنج في البلد أسبوعا يقتلون المسلمين.(٢٦)

ثم اقتحم الغزاة المحتلين المسجد الأقصى وارتكبوا فيه مذبحة وحشية ضد من لجأ إليه وكان منهم "جماعة كبيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف".

ويبدو مما سبق في تركز العلماء والعباد والفقهاء في المسجد الأقصى أنهم كانوا هم آخر من استسلم، ودليل واضح وقوي على أن رجال الدين آنذاك والعلماء أيضاً لم يقتصر دورهم على مهمة الوعظ والإرشاد وشحذ الهمم وتقوية النفوس وإنما حملوا السلاح، وقاتلوا حتى نالوا شرف الشهادة في سبيل الدفاع عن المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، ومسرى النبي صلى الله عليه وسلم .(٢٧)

وقد حفلت كتب التاريخ والتراجم بالكثير من الأمثلة حول علماء وفقهاء ساهموا مساهمة إيجابية بالسلاح واللسان للتصدي للصليبيين، فقد كانوا هم عماد دعوة الجهاد لأنهم أحسوا بخطر الصليبيين، وكانت دعوتهم إلى التجمع ونسيان الخلافات والأطماع الدنيوية والنزاع الذي كان سبباً للفرقة والضعف، وكان قد بلغ الحماس الديني بالعامة مبلغه، ولم يستجب الأمراء والحكام – أول الأمر– لذلك الحماس الديني لأنهم لم يكونوا ليستشعروا مسؤوليتهم في مواجهة العدوان.(٢٨)

لكنهم استجابوا بعد ذلك في عهد صلاح الدين الأيوبي، وبشكل كبير حتى أن استجابتهم تلك تحولت في بعض الأحيان إلى معاتبة لبعض العلماء على تقصيرهم في عدم الوقوف ضد المتخاذلين، ومن أمثلة ذلك ما حدث بعد وفاة نور الدين محمود زنكي عام ٥٦٩هـ/١١٧٤م حيث هاجم الصليبيين بانياس فـ" ظهرت خيبتهم وبان اليأس"، ثم خرج إليهم شمس الدين بن المقدم قائد عساكر دمشق واتفق معهم على الهدنة، وأن تدفع دمشق مبلغ مستعجل من المال، كما يتم إطلاق عدد من الأسرى الصليبيين،.(٢٨)

وقد وصلت أخبار هذه الهدنة إلى صلاح الدين في مصر واعتبرها "مؤذنة بذلّ الإسلام"وأرسل كتباً إلى أعيان وعلماء دمشق منهم الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرونفيها ملام وعتاب يقول فيها "وسيدنا الشيخ أول من جرد لسانه الذي تغمد له السيوف وتجرد، وقام في سبيل الله قيام من يقطّ عادية من تعدى وتمرد".(٢٩)

الخطيب السلمي(دوره وارائه الجهادية):

ويعتبر الخطيب أبو الحسن على بن مسلم بن الحسن السلمي الدمشقي (٤٥٢- ٥٣٣هـ/ ١٠٦٠-١١٣٨م) أحد هذه الأمثلة على بروز الفكرة السابقة- الجهاد والوحدة وضرورة نبذ الفرقة والتشرذم- فقد شهد السلمي وهو في أواخر عمره غزو الصليبيين للشام، فخصص دروسه في جامع بني أميه الكبير للحديث عن فضائل الجهاد، تحريضاً لأهالي الشام على مقاومة المحتلين.(٣٠)

وألف كتاباً في اثني عشر جزءاً أسماه "كتاب الجهاد"، ذكر فيه معارك الإسلام الأولى ودور المجاهدين، مع ذكر الآيات والأحاديث النبوية التي تحض على الجهاد وتبين مكانة المجاهدين، كما شرح فيه أبعاد الاحتلال الصليبي، وهو أول من بين أنه هجوم غربي على العالم الإسلامي كله ذو ثلاث شعب: الأولى في الأندلس، والثانية في صقلية وأفريقيا، والثالثة في بلاد الشام.(٣١)

وقد اعتبر السلمي في إحدى خطبه وهي بعنوان "الغزو واجب" توقف المسلمين عن ممارسته سبباً في اختلاف كلمتهم وتمزق وحدتهم من جهة، وفي طمع الأعداء بهم واحتلال بلادهم مبتدئين بالمناطق الأقرب متابعين حتى بلاد الشام التي وجدوها ممالك مختلفة متنافسة، ومذاهب متعددة مما أغرى باحتلالها.(٣٢)

ثم شرح مسؤولية الإمام في قيادة الجهاد وفق مصلحة المسلمين، وبعد ذلك يقول:"فقد تبين مما ذكرت أنه إذا احتيج إلى الجماعة بغزو كلهم فرضاً واجباً عليهم وذلك في مثل هذه الحال التي نحن عليها الآن مع هذه الفرقة الهاجمة على بلاد الشام –يقصد الصليبيين–" . (٣٣)

ثم يبين السلمي ضرورة النفير في الحال لاسيما مع قلة العدو وبعد ناصرهم، ثم ينادي: "فشمروا عن سوق الاجتهاد إلى مفترض هذا الجهاد ومتعين الذب عن دينكم وإخوانكم بالمؤازرة والإنجاز"، وفي هذا حث للمقاومة على ضرب الصليبيين مع علمه أن هذا العدو لا يمكن أن يستمر دون أن يأتيه المدد من أوروبا لأنه يعاني من نقص العنصر البشري وهذا في مصلحة المقاومة.(٣٤)

ويبين أن الجهاد متوجب على الجميع ، ثم يتحدث السلمي في خطبته عن ضرورة تآلف ووحدة المسلمين في كل ديار الإسلام لمواجهة الغزو الصليبي ، ويطالب بعودة الوئام و الصفاء مستشهداً بما كان يفعله العرب حتى قبل الإسلام، ثم يصل إلى نقطة هامة فيطالب بمساعدة أهالي الساحل المحاصرين المجاهدين لأنهم الآن شاغلون للعدو عن هذه البلاد وما يليها من مصر ونواحيها".(٣٥)

ومن خلال عرض ما سبق من خطبة السلمي يتضح –كما سبق أن قدمنا– مدى إحساس العلماء والفقهاء بمخاطر الغزو الصليبي على بلاد الشام، ويمكن أن نستنتج أن هؤلاء العلماء والفقهاء استندوا في حثهم الناس على المقاومة والجهاد من خلال استفادتهم من فكرة الجهاد التي رسخها الإسلام كمفهوم أساسي وواجب على جميع المسلمين للدفاع عن الأمة، وتأمين استمرارية حيويتها ونشاطها.(٣٦)

اهم علماء المسلمين ومؤلفاتهم في هذا المجال:

ولم يكن السلمي وحده من ركز في مؤلفاته على الجهاد وبيان فضائله، ولكنه يعتبر بداية من افتتح هذا التوجه نحو هذا النوع من المؤلفات، لأن طبيعة العصر وما حدث فيه من تحولات سياسية جذرية بعد احتلال الصليبيين لأجزاء كبيرة من بلاد الشام أثرت حتى على نتاجات ومؤلفات الفقهاء الذين ركزوا في طروحاتهم الفكرية ونتاجاتهم العقلية على الجهاد وفضائله وذلك من أجل شحذ همم السكان المحليين في بلاد الشام لمقاومة الصليبيين.(٣٧)، وينطبق ذلك بصورة واضحة على ابن عساكر الذي ألف كتاباً احتوى أربعين حديثاً عن فضائل الجهاد، وطاهر بن نصر الله بن جهبل المتوفى سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م الذي ألف لنور الدين محمود زنكي كتابا في فضل الجهادولشغف نور الدين بالجهاد وضع فيه كتاباً بقلمه.(٣٨)

وذكر ابن شدادأن حب الجهاد قد استولى على قلب صلاح الدين ولهذا جمع له ابن شداد كتاباً جمع فيه كل آدابه، وكل آية وردت فيه، وكل حديث روي في فضله، ومن هذه الكتب كتاب ألفه محمود بن محمد بن صيفي، ومنها كتاب لعز الدين ابن الأثير، وكتاب لأبي العواليوفرغ منه سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م.(٣٩)

ومن الفقهاء و العلماء الذين برزوا في بداية الغزو الصليبي وحمل السلاح ضدهم الشيخ أبو القاسم الأنصاريالذي كان قاضياً للقدس عندما اجتاحها الصليبيون ، وقد تزعم حركة المقاومة ضد الصليبيين .(٤٠)

ولعب دوراً بارزاً في القتال وتحريض الناس على الجهاد في سبيل الله، وقد قاموا بالقبض عليه وساقوه أسيراً وبدأوا ينادون في فكاكه بألف دينار فلما علموا أنه من علماء المسلمين ، وعند ذلك أقدموا على إعدامه ، حيث رمي بالحجارة على باب أنطاكية.(٤١)

ومن هؤلاء العلماء أيضاً الشيخ أبو القاسم الرازيالذي استشهد مدافعاً عن ثرى القدس الشريف.(٤٢)

انضمام فقهاء المغرب للجهاد

ولم تقتصر المقاومة على علماء المشرق فقط، بل شاركهم ومنذ بدء الحركة الصليبية علماء وفقهاء مغاربةكانوا ضمن جيوش الأفضل بن بدر الجمالي،"وأبلوا بلاء حسناً"ومن هؤلاء العلماء فقيه مغربي كان قد وفد من الملثمين (المرابطين) إلى بغداد حيث قام بالوعظ والتحريض في جامع دار الخلافة "واجتمع له العالم الطيب"ثم غادر بغداد إلى القدس ليشارك في المقاومة بحيث "لم يكن للمصريين حرب مع الفرنج إلا من شهدها فقتل في بعضها شهيداً، وكان شجاعاً فتاكاً مقداماً".(٤٣)

وممن استشهد في بداية الغزو الصليبي مدافعاً عن مدينة أنطاكية قبيل سقوطها عام ٤٩١هـ/١٠٩٨م الفقيه أبو عبد الله الحسين بن الحسن الشهرستاني، الذي "خرج مع الجموع إلى أنطاكية فاستشهد بها".(٤٤)

الفقهاء يقودون المقاومة ضد الصليبين

وقد أثار استيلاء الصليبيين على القدس المسلمين في جميع المناطق خاصة مصر والشام والعراق، وخلق ذلك الاحتلال توتراً في العالم الإسلامي "وانزعج المسلمون في سائر ممالك الإسلام بسبب أخذ بيت المقدس غاية الانزعاج"(٤٥)قاده زعامته الفكرية الشعراء والكتاب والعلماء والفقهاء، الذين جردوا حملة إعلامية لإثارة الناس ودفعهم لتحرير الأراضي المقدسة، وبدأت دعوة الجهاد تسري بين الناس في العالم العربي الإسلامي بسرعة كبيرة.(٤٦)

وفي رحم الحركة الفكرية التي قادها المفكرون تبلورت اتجاهات المقاومة ضد المحتلين الصليبيين، فخرجت من دمشق خاصة وبلاد الشام عامة سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م جماهير شعبية حاشدة بزعامة القاضي زين الدين أبي سعد الهرويإلى بغداد ليشكلوا رأي عام ضاغط على الحكام المتخاذلين "فأوردوا كلاماً أبكي العيون وأوجع القلوب، وقاموا في الجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكوا، وذكروا ما دهم المسلمين بذلك البلد الشريف المعظم من قتل الرجال وسبي الحريم والأولاد"(٤٧)،

وبناءً على ماسبق "ندب الخليفة ببغدادالفقهاء إلى الخروج في البلاد ليحرضوا الملوك على الجهاد، فخرج الإمام أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي، وغير واحد من أعيان الفقهاء وساروا في الناس"، ليحرضوهم على المقاومة.(٤٨)

ونتيجة لذلك تجمهر الناس في المحلات العامة في دمشق وحلب، ودخل الكثير منهم بقيادة علماء الدين المساجد وأخذوا يدعون للجهاد والمقاومة، وبسرعة، ضد المحتلين (٤٨)، فقد كان المسلمون إذا لمسوا تهاوناً من الحكام المسلمين، بصدد الجهاد ضد المحتلين الصليبيين، اجتمعوا ومعهم رجال الدين وتوجهوا إلى المساجد لإعلان احتجاجهم كي تصل صرخاتهم إلى الحكام،.(٤٩)

وقد استمرت حملات الإستنفار والاستغاثة الشعبية رغم مرور أكثر من عقد على سقوط القدس وغيره من المدن الإسلامية ففي أول جمعة من شعبان سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م سار جماعة من "أهل حلب وجماعة من الصوفية والتجار والفقهاء إلى جامع السلطانببغداد فاستغاثوا وانزلوا الخطيب عن المنبر(٥٠) وكسروه وصاحوا وبكوا لما لحق الإسلام من الإفرنج وقتل الرجال وسبي النساء والأطفال، ومنعوا الناس من الصلاة".(٥١)

وأخذ الخليفة في الاستعداد ويتهيأ السلطان للغزو نتيجة لتلك الضغوط "فلم يتم ذلك لضعف عساكر العراق" "ولم تنجدهم عساكر مصر "، وفي سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م خرج أهالي حلب وبزاغة من النساء والصبيان والرجال في مظاهرة كبيرة دخلوا بها المساجد ومنعوا الناس من إقامة الصلاة، ودفعوهم لقتال الأعداء واضطروا لكسر المنابر.(٥٢)

موقف الفقهاء من معاهدة الكامل– فردريك

وواصل الفقهاء ورجال الحركة الفكرية تزعمهم لردود الأفعال الشعبية ضد أي تخاذل أو تفريط يلمسوه من جانب زعمائهم السياسيين، فقد اعتبر المسلمون في بلاد الشام أن معاهدة السلام التي عقدها السلطان الأيوبي الكامل مع الأمبراطور فريدريك الثاني في السابع والعشرون من جمادي الأولى عام ٦٢٦هـ/٢٣إبريل ١٢٢٩م. (٥٣)

والتي تقضي بتسليم القدس للصليبيين كارثة حقيقية، وكان رد فعل العلماء عنيفاً ضد السلطان الذي برر موقفه بقوله" إنا لم نسمح للفرنج إلا بكنائس وأدر(أديرة) خربة والحرم وما فيه من الصخرة المقدسة وسائر المزارات بأيدي المسلمين على حاله وشعار الإسلام قائم على ما كان عليه، ووالي المسلمين متحكم على رساتيقه وأعماله"(٥٤) وعلى الرغم من ذلك "استعظم المسلمون ذلك وأكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم مالا يمكن وصفه"، وعندما قرر تطبيق الاتفاقية على أرض الواقع "نودي بالقدس بخروج المسلمين وتسليم القدس إلى الفرنج، فوقع في أهل القدس الضجيج والبكاء"(٥٥) "والصراخ والعويل، وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل، وأذنوا على بابه في غير وقت الأذان، فعز عليه ذلك" وهذا من أكبر الأدلة على درجة التأثير التي تركتها ردود الفعل الشعبية بقيادة الفقهاء والعلماء على ما فعله الكامل ، أضف الى ذلك ما قام به الشيخ الفقيه الواعظ سبط ابن الجوزي(٥٦)' بأمر من الناصر داود أن يعقد مجلساً للوعظ يذكر فيه فضائل بيت المقدس، وماحل بالمسلمين من تسليمه إلى الصليبيين وقد وصف سبط ابن الجوزي ذلك المجلس وردة الفعل الإسلامية على تسليم الكامل القدس للصليبيين بقوله: بأنه عندما وصلت الأخبار بذلك "قامت القيامة في جميع بلاد الإسلام، واشتدت العظائم، بحيث أقيمت المآتم(٥٧)، وأشار الملك الناصر داود أن أجلس بجامع دمشق، وأذكر ما جرى على البيت المقدس، فما أمكنني مخالفته، ورأيت من جملة الديانة الحمية للإسلام موافقته، فجلست بجامع دمشق، وحضر الناصر داود، على باب مشهد علي، وكان يوماً مشهوداً(٥٨)، لم يتخلف من أهل دمشق أحد".(٥٩) ، وأورد كلاماً كثيراً عن هذه الحادثة العظيمة والمصاب الجلل الذي أصاب الأمة.

وقد وصف ابن واصلوالذي حضر مجلس سبط ابن الجوزي بأنه "كان مجلساً عظيماً..ارتفع ضجيج الناس وبكاؤهم، فلم ير إلا باك أو باكية".(٦٠)

دور العز بن عبد السلام في احداث عصره

قام الصالح عماد الدين إسماعيل بتسليم (٦١)قلعة صفد وقلعة الشقيف وبلادها ومناصفة صيدا وطبريا وأعمالها، وجبل عاملة، وسائر المناطق الساحلية للصليبيين سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م ، "وأذن للفرنج في دخول دمشق وشراء السلاح، فأكثروا من ابتياع الأسلحة وآلات الحرب من أهل دمشق، فأنكر المسلمون ذلك .(٦٢)

ومشى أهل الدين منهم إلى العلماء واستفتوهم، فأفتى الشيخ عز الدين بن عبد السلامبتحريم بيع السلاح للفرنج وقطع من الخطبة بجامع دمشق الدعاء للصالح إسماعيل، وصار يدعو في الخطبة بدعاء منه: "اللهم أبرم لهذه الأمة إبرام رشد تعز فيه أولياءك، وتذل فيه أعداءك، ويعمل فيه بطاعتك، وينهي عن معصيتك، والناس يضجون بالدعاء"(٦٣)

وعندما علم بذلك الصالح إسماعيل أمر بحبسه هو وابن الحاجبالذي أنكر معه ما فعله الصالح إسماعيل بفرض الإقامة الجبرية عليه بعد أن عزله عن الخطابة، ومنعه من الفتوى وأن لا يدخل عليه أحد إلا الطبيب أو المزين –الحلاق– (٦٤)

ثم نزح إلى بيت المقدس ، ومنها إلى نابلس بناء على طلب من الملك الناصر حاكم الكرك و نابلس الذي استدعاه لتحريض الناس على مقاومة الصليبيين والصمود أمام المذابح التى أوقعها هجوم الداوية على نابلس فى ذي الحجة ٦٣٧هـ/يونيه يوليه ١٢٤٠م ،ويصف له فداحة الهجوم وما أحدثه من خسائر.(٦٥)

وبعد نزوله عند الناصر وصل الصليبيون وحلفاءهم من العساكر الإسلامية بقيادة الصالح إسماعيل ،والملك المنصور صاحب حمص ، وعسكروا في القدس ليستأنفوا بعدها الهجوم على مصر، ولأنهم خشوا من تحريض العز ابن عبد السلام ، أمر الصالح إسماعيل جنوده بإحضاره من نابلس إلى القدس ثم "اعتقله فى خيمة إلى جانب خيمة السلطان ".(٦٦)

، وقد سأل الصليبيون الصالح ،من يكون هذا الشيخ؟ فرد عليهم قائلا: "هذا أكبر قسوس المسلمين وقد حبسته لإنكاره علي تسليمي لكم حصون المسلمين وعزلته عن الخطابة بدمشق وعن مناصبه ثم أخرجته فجاء إلى القدس وقد جددت حبسه واعتقلته لأجلكم ،فقالت له ملوك الفرنج لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا مرقتها".(٦٧)

وقد برز دور الفقهاء والعلماء واضحاً في الدفاع عن المدن الإسلامية أثناء حصار الصليبيين للمدن الشامية، يدلنا على ذلك ما ذكره ابن القلانسي(٦٨) من أن أهل صيدا وبعد أن فشلوا في مقاومتهم للصليبيين سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م قاموا "بإخراج قاضيها وجماعة من شيوخها وطلبوا من بغدوين –بلدوين الأول– الامان فأجابهم إلى ذلك" .(٦٩)

ويبدو من رواية ابن القلانسي أن القاضي وهو من الفقهاء كان يقود المقاومة ضد الصليبيين المحاصرين لمدينة صيدا، وتدل روايته على أن أهل صيدا هم من قاوم الصليبيين (٧٠) ولم يكن هناك أي قوة نظامية أو حامية فاطمية رسمية تدافع عن المدينة وإلا فلماذا خرج القاضي والشيوخ لطلب الأمان، وإذا كانت هناك قوة رسمية أو نظامية تدافع عن المدينة فلماذا لم يخرج قائد الحامية، أو من يمثله ليتفاوض مع القوات الصليبية.(٧١)

وقد ظهرت معالم أخرى لدور الفقهاء كمتطوعين في المقاومة في شمال بلاد الشام حيث تزعم الفقيه الحلبي القاضي أبو الفضل ابن الخشاب المقاومة ضد الصليبيين خاصة في معركة البلاط(٧٢)سنة ٥١٣هـ/١١١٩م، إذ عمل ابن الخشاب على شحذ همم مجموعات المقاومة الشعبية والجنود على قتال الصليبيين، وأقبل يحرض الناس على القتال، وهو على حجر وبيده رمح، "وخطبهم خطبة بليغة استنهض فيها عزائمهم، واسترهف هممهم بين الصفين، فأبكى الناس وعظم في أعينهم".(٧٣)

وقدر للحملة الصليبية الثانية ٥٤٣هـ/١١٤٨م أن تشهد دوراً مقاوماً من جانب الفقهاء والعلماء الشاميين كنوع من المقاومة الشعبية ضد الصليبيين، وقد تمثل ذلك في دور اثنين من الفقهاء هما أبو الحجاج يوسف بن دوناس الفندلاوي، وعبد الرحمن الحلحوليااللذان تزعما المقاومة ضد الصليبيين المهاجمين لدمشق .(٧٤)

، ويصور لنا أسامه بن منقذالحوار الذي دار بين الفقيهين حيث قال الحلحولي للفندلاوي: هل هؤلاء الروم؟ (يعني الصليبيين) قال: نعم، قال فإلى متى نحن وقوف؟ قال: سر على اسم الله فتقدما فقاتلا حتى استشهدا رحمهما الله في مكان واحد". (٧٥)

وكان معين الدين أنر حاكم دمشق قد طلب منهما آلا يشاركا في القتال نظراً لتقدم سنهما، ولكنهما رفضا إلا الجهاد والمقاومة، ويصور لنا ذلك الحوار رغبة دفينة للفقهاء لكي يشاركوا

في المقاومة ضد الصليبيين، وقد كان لاستشهادهما أكبر الأثر في إثارة المسلمين في دمشق ضد الصليبيين.(٧٦)

واستمر الفقهاء والعلماء في لعب دور هام كمتطوعين في المقاومة في عهد نور الدين محمود فشاركوه الفتوح وصحبوه ،فكانوا يساندونه بالدعاء له وقراءة القرآن .(٧٧)

ومن أمثلة ذلك ما حدث فى عام ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م عندما هاجم قلعة عزاز واستطاع فتحها ، حيث اشترك الفقهاء فى هذا الفتح ، ويظهر ذلك فيما أورده ابن العديم من أن أبو الحسين بن أبي عبد الله بن حمزة بن الصوفي المقدسي(٧٨) الزاهد أحد الأولياء المذكورين والأصفياء المستورين وأرباب الكرامات المشهورين ،قد طلب من نور الدين فتح عزاز بعد أن أسر حاكمها جوسلين و قال له: " تعال حتى نحاصر عزاز ونعاون المسلمين ثم عمل صورة قلعة من طين وقال لي امش حتى نزحف عليها ثم جعل يقول نصر من الله وفتح قريب نصر من الله وكسر الصليب وجعل يكرر ذلك ثم قال ها أخذناها أخذناها " .(٧٩)

وخلال أحداث معركة بانياس عام ٥٥٢هـ/١١٥٧م التي تعتبر من أهم المعارك الحربية التي جرت ضد الصليبيين في العهد النوري، اشترك فيها عناصر من " الفقهاء الصوفية والمتدينين العدد الكثير".(٨٠)

ويبدو من الرواية السابقة بروز عناصر أخرى إلى جانب الفقهاء ألا وهم المتصوفة والمتدينين الذين لا يقلون أهمية عن الفقهاء والعلماء.(٨١)

ويلاحظ أن هذا الدور من المتصوفة إلى جانب الفقهاء يجعلنا لا نأخذ كحقيقة مسلمة ما قد أشار إليه ابن جبيرخلال رحلته في بلاد الشام من أن المتصوفة قد كفاهم الله "مؤن الدنيا وفرغ خواطرهم للعبادة من الفكر في أسباب المعايش".(٨٢)

فإن ابن جبير بحكم المدة القصيرة التي أمضاها هناك لم يلتمس كافة جوانب نشاط المتصوفة الشاميين، ومن ثم فقد تصور تفرغهم لأمور العبادة.

وسجل العلماء والفقهاء حضوراً في أول المعارك التي خاضها صلاح الدين في الثاني من جمادي الآخرة عام ٥٧٣هـ/السادس والعشرين من نوفمبر ١١٧٧م. في معركة الرملة أو تل الصافية أو كما يسميها البعض بكسرة الرملة، ومما يدل على مشاركة الفقهاء في هذه

المعركة، أنه بعد هزيمة المسلمين الذين "قدر الله كسرتهم... وتددوا وأسر منهم الفقيه عيسى. (٨٣)

وظل الفقيه عيسى أسيراً لدى الصليبيين مدة سنتين أي سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م حيث افتداه السلطان صلاح الدين بستين ألف دينار وعدد من أسرى الصليبيين، وما فعله صلاح الدين لإطلاق سراح الفقيه عيسى إنما يدل على ما حظي به الفقهاء من أهمية ، وتقديراً لدورهم في شحذ الهمم لمقاومة الاحتلال.(٨٤)

ارتبط الفقهاء والعلماء كذلك كمتطوعين في جيش صلاح الدين مما يعني مشاركتهم في المقاومة وبرز دورهم في فتح مدينة القدس، وهذا يجعلنا نتصور احتمال اشتراكهم في معركة حطين التي سبقت الفتح المبارك للقدس عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م، وهذا ما يؤكده ابن كثير(٨٥) بأنه عندما عزم صلاح الدين على فتح القدس الشريف " قصده العلماء والصالحون تطوعاً" .

وما تؤكده المصادر من أنه وبعد انتهاء المعركة فإن القاضي ابن أبي عصرون وهو من الفقهاء قاد الأسرى الصليبيين من الملوك والأمراء ودخل بهم دمشق وهو يحمل صليب الصلبوت منكساً.(٨٦)

وكان للفقهاء دور واضح في المشاركة في حصار الحملة الصليبية الثالثة المعاصرة لمدينة عكا، ومن بينهم الفقيه عيسى الهكاري الذي سبقت الإشارة إليه وقد وافته المنية خلال هذا الحصار ثم نقل جثمانه ليدفن في القدس.(٨٧)

كما واستشهد عدد من الفقهاء والعلماء خلال المعارك حول عكا منهم العالم الشاعر الزاهد الشيخ جمال الدين أبو علي الحسين بن عبد الله الذي ينتهي نسبه إلى ابن رواحة الأنصاري الخزرجي، والفقيه إسماعيل الصوفي الأرموي المكّبس وشيخ آخر لم يعرف اسمه.(٨٨)

وأفادت إشارة ابن شداد،أنه شارك بنفسه في الجهاد هو وعدد كبير من الفقهاء حين ذكر بأنه بعد استشهاد أحد الجنود قام بالصلاة " عليه مع جماعة من الفقهاء".(٨٩)

تعدى دور الفقهاء في المشاركة في المقاومة إلى مشاركتهم في تحصين المدن الشامية من خلال بناء الأسوار وحفر الخنادق، ويدلنا على ذلك ما ذكرته المصادر الشامية من أنه عندما شرع السلطان صلاح الدين في تحصين القدس وعمارة أسواره، وحفر خنادقه سنة ٥٨٧هـ.(٩٠)

عمل السلطان في ذلك بنفسه وشاركه في نقل الحجارة "جماعة خواصه والأمراء، واجتمع لذلك العلماء والقضاة والصوفية والأولياء، وحواشي العساكر والأتباع وعوام الناس، فبنى في أقرب مدة ما يتعذر بناؤه في سنين".(٩١)

وواصل الفقهاء والعلماء جهودهم في مقاومة المحتل لنجدهم يشاركوا في صد العدوان الذي وقع على مدينة حماة سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م على الرغم من هروب الكثير من الأهالي أثناء هذا الهجوم الصليبي، فهذا الفقيه شهاب الدين أبو القاسم ابن البلاعي والذي كان من أكابر حماة "فقيهاً ورعاً شجاعاً يتزيي بزي الجند".(٩٢)

فكان من أوائل المقاومين الذين تصدوا لهذا الهجوم "فقاتل ذلك اليوم ورمى فارساً من الفرنج"،غير أن فرسه وقعت به فوقع أسيراً بأيدي الصليبيين وتم أخذه إلى إمارة طرابلس مع عدد كبير من الناس، ولكنه استطاع الهرب بعد وصوله إلى طرابلس بحيث لم يبت في حبس طرابلس ولا ليلة واحدة وعاد إلى أهله سالماً.(٩٣)

وفي سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م تزعم الفقيه العالم المؤرخ الواعظ سبط ابن الجوزي . وكان خطيبا بارعا في الوعظ وتحبه العامةمجموعات المقاومة الشعبية للهجوم على الصليبيين حول عكا .(٩٤)

وخلال العصر الايوبي يمكن أن نلتمس ملامح الدور الجهادي للفقهاء والعلماء المشاركين في التعبئة والمقاومة في تراجم أعلام الفقهاء والعلماء، فنجد كلاً من ابن مفلح، والنعيميوابن العمادوخلال ترجمتهم للفقيه عز الدين عبد الهادي بن شرف الإسلام الحنبلي المتوفى سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م يستشهدون على قوته الجسدية بقولهم أنه "بارز فارساً من الإفرنج فضربه بدبوس فقطع ظهره، وظهر الفرس فوقعا جميعاً".(٩٥)

وفي ترجمة الشيخ الفقيه أبي عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي المولود بقرية الساويا من أعمال نابلس سنة ٥٢٨هـ/١١٣٣م ، والمتوفى سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م، نجد أن من ترجم له ، يؤكدون على دوره الجهادي في مقاومة الاحتلال الصليبي في عهد صلاح الدين بحيث كان "مسارعاً إلى الخروج في الغزوات قلما يتخلف عن غزاة".(٩٥) .

وقدمت بعض المصادر بعض التفاصيل عن تلك الأنشطة الجهادية حيث ذكرت أنه اشتراك في المعارك التي سبقت دخول المسلمين للقدس وكذلك معارك الساحل الشامي، ومن ناحية أخرى فإن الشيخ أبو محمد عبد الله بن عثمان بن جعفر اليونيني المتوفى سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م ، قد قيل عنه أنه لم تفته غزوة من الغزوات بين المسلمين والصليبيين إلا اشترك فيها .(٩٦)

، وكان يطلب الصليبيين في مكامنهم "ولا يبالي بالرجال قلوا أو كثروا"، وكان له معداته الخاصة بالحرب والقتال ويفرح فرحاً شديداً إذا ما التقى بالصليبيين متمنياً الشهادة ويلقي نفسه بالمهالك، ومن الأمور ذات الدلالة أن اليونيني قد لقب بلقب "أسد الشام"، ومن الطبيعي أن هذا اللقب جاء نتاجاً لدوره الجهادي ضد الصليبيين .(٩٧)

وقد كان طبيعياً والأمر كذلك أن وجدنا للفقهاء والعلماء دورهم الجهادي في المقاومة خلال عصر سلاطين المماليك، وقد وجد لهم نشاطهم الجهادي خلال حصار قلعة أرسوف عام ٦٦٣هـ/١٢٦٥م ويقرر ان عبد الظاهرومن بعده المقريزيانهم حضروا أحداث الحصار وشاركوا فيه، بل لدينا أسماء بعض أولئك الذين حضروا وشاركوا في إسقاط القلعة الحصينة ومنهم الشيخ على البكا، والشيخ إلياس.(٩٨)

وسجل المقريزيحضور الفقهاء في فتح صفد سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م، فقال عن ذلك خلال حديثه عن فتح المسلمين لمدينة صفد، : "وقدم الفقهاء للجهاد"كذلك، خلال خروج الجيش لحصار الثقيف في سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م.(٩٩)

كما شكل الفقهاء أحد عناصر المتطوعة من المقاومة خلال حصار مدينة طرابلس سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م بحيث حضر عدد من الفقهاء هذا الحصار ومنهم قاضي القضاة الحنبلي نجم الدين أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن أبي عمر بن محمد بن قدامة المقدسي المتوفي سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م، وفي خلال أحداث سقوط عكا في أيدي المماليك عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م اشتركت عناصر "الفقهاء والمدرسين والعلماء" في تلك الوقائع التاريخية كمتطوعين من أفراد المقاومة الشعبية في مواجهة الاحتلال الصليبي.(١٠٠)

ومن ناحية أخرى شهدت بلاد الشام فصلاً ثانياً من الدور الجهادي للفقهاء، عندما تم صدامهم مع عناصر الرهبان الفرسان من الإسبتارية والداوية، ثم أن أحداث المواجهة بين الطرفين تعتبر من أخطر الأحداث التي زخرت بها قصة الصراع الإسلامي الصليبي نظراً لنوعية الفرسان الصليبيين ، ثم حقيقة موقف الفقهاء منهم وقتلهم لهم في بعض المعارك التي خاضها المسلمون.(١٠١) .

، وقد أدرك الفقهاء الشاميون خطورة هذه العناصر الرهبانية ومدى دورهم الحربي العنيف، ومن هؤلاء الفقهاء الشيخ عبد الله اليونيني، ومن المحتمل أن إدراكه هذا كان يعكس إدراك قطاعات كبيرة من الفقهاء والعلماء بشأن التنظيمات الدينية الصليبية.(١٠٢)

الخاتمة

خلصت الدراسة إلى ما يلي :

- بدأ دور العلماء في فترة الحروب الصليبية بمهمة الوعظ والإرشاد وشحذ الهمم وتقوية النفوس و كان دورهم التعبوي في المقام الاول حيث يلعب العامل النفسي والوازع الديني دورا حاسما وفعالا في مثل هذه الحروب.

- لم يقتصر دور الفقهاء علي الوعظ والجانب المعنوي فقط و إنما حملوا السلاح ، وقاتلوا حتى نالوا شرف الشهادة في سبيل الدفاع عن الارض .

- مارس الفقهاء دورهم القيادي والتعبوي في المقاومة التي سادت اهل الشام في العصر الايوبي استنادا إلى استشعارهم وفهمهم لركن الجهاد الذي رسخه الإسلام كمفهوم أساسي وواجب على جميع المسلمين عالمهم و جاهلهم .

- انضم الفقهاء للجيش الإسلامي كمتطوعين ، فضربوا القدوة والمثل الصالح في الجهاد لعامة المسلمين وخاصة في معركة تحرير مدينة القدس تحت قيادة البطل صلاح الدين الأيوبي .

- تصديالفقهاء والعلماء ، للمنظمات الدينية العسكرية الصليبية أمثال الداوية و الاسبتارية فهم اكثر من غيرهم دراية بخطورة واهمية هذه الهيئات المساندة للصليبين.

- لم يقتصر الامر علي الجهاد اليدوي بالنفس والمال بل زخر العصر بمؤلفات ثمينة لعلماء افذاد تصدوا للكتابة والتاليف وشحذ همم المسلمين ضد الصليبين.

- لم يقتصر الامر علي فقهاء وعلماء الشام فقط بل تدافع فقهاء وعلماء المغرب والعراق نحو الشام مؤازة لاخوانهم فالمصاب غالي والقضية واحدة.

الهوامش

١. محمدعمارة،،دراساتفيالوعيبالتاريخ،دارالوحدةلا.ت،ص.٦٢
٢. مجلةالمورد،العدد٤-مج ١٦،بغداد- ١٩٨٧م،ص٥؛
٣. The new Encyclopedia Britannica, U.S.A 1951, Vol, 6, P,771.
٤. حسن ابراهيم حسن،،تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي،ط١،القاهرة-١٩٦٧م ،ج٤،ص٢٤٣؛
٥.لوبون،غوستاف،حضارة العرب،نقلة الى العربيةعادل زعيتر،مطبعةعيسى البابي الحلبي،القاهرة،لا.ت،ص.٣١٧
٦.شلبي،احمد،موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة،الاسلامية،ط٣،مطبعة النهضة المصرية،القاهرة-١٩٧٧م،ج٥،ص٥٤٩؛
٧. العابد،الحروب الصليبية،ص.٥
٨. قاسم،قاسم عبده،ماهية الحروب الصليبية،المجلسالوطنيللثقافةوالفنونوالاداب،الكويت- ١٩٩٠م،ص٩، .١٢
٩.لامب،هارولد،شعلةالاسلام،قصةالحروبالصليبية،ترجمةمحمودعبداللهيعقوب،مراجعةجما لالدينالشيال،مطبعةالارشاد،بغداد- ١٩٦٧،ص.٢
١٠. شاكراحمدابوبدر،،الحروبالصليبيةوالاسرةالزنكية،الجامعةاللبنانية- ١٩٧٢،ص.١٧
١١.ارنست،الحروبالصليبية،ترجمةالسيدالباز العريني،ط٢،مكتبةالنهضةالمصرية،القاهرة،لا. ت،ص.٨١
١٢.مؤلفمجهول،اعمالالفرنجةوحجاجبيتالمقدس،ترجمةحسنحبشي،دارالفكرالعربي،مصر- ١٩٥٨م،ص٣١؛
١٣. جوزيفنسيميوسف،،فيتاريخالحركةالصليبية،دارالمعرفةالجامعية،الاسكندرية- ١٩٨٩م،ص.٣٠
١٤. بروى،ادوار،القرونالوسطفيتاريخحضاراتالعالم،ترجمةداغرواخرون،بيروت- ١٩٦٥م،ج٣،ص.٣١٢
١٥. ستيفنرنيسمان،،تاريخالحروبالصليبية،ترجمةالسيدالباز العريني،دارالثقافة،بيروت- ١٩٦٨م،ح١،ص.١٦٣
١٦.ابومحمد،عبداللهبناسعدبنعليبنسليمان(ت:٧٦٨هـ/١٣٦٦م)،مراةالجنانوعبرةاليقظانفيمعرفةما يفيدمنحوادثالزمان،بيروت-١٣٩٠هـ،ح٣،ص١٥٨؛
١٧. جمالالدينابوالمحاسنالاتابكي(ت:٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م)،النجومالزاهرةفيملوكمصروالقاهرة،القاهرة- ١٩٢٩، ١٩٧٢م،ح٥،ص.١٤٩
١٨. السامرائي،خليلواخرون،تاريخالدولةالعربيةالاسلاميةفيالعصرالعباسي ١٣٢- ٦٥٦هـ/٧٤٩-١٢٥٨م،مطابعدارالكتابوالنشر،الموصل-١٩٨٨م،ص.٢٦١
١٩.سعيدعبدالفتاحعاشور،،الحركةالصليبيةصفحةمشرفةفيتاريخالجهادالعربيفيالعصورالوسطى،ط١،القاهرة-١٩٦٣م،ج١ ص.٢٩
٢٠. المرجعنفسه،ج١،ص.٣٧
٢١. هـ-ي،سويتار،فيطلبالتوابل،ترجمةمحمدعزيزرفعت،القاهرة- ١٩٥٧م،ص١٤- .٤١

٢٢. رنسيمان،تاريخالحروبالصليبية،ج١،ص.١٧٠
٢٣. المرجعنفسه،ج١،ص١٧٠-.١٧١
٢٤. عاشور،الحركةالصليبية،ج١،ص٣٤-.٣٥
٢٥. سالممحمودالحميدة،،الحروبالصليبية،دارالشؤونالثقافيةالعامة،بغداد-١٩٩٠م،ج١،ص.٤٨
٢٦. عاشور،الحركةالصليبية،ج١،ص٣٥؛
٢٧.ابراهيماحمدالعدوي،،التاريخالاسلاميافاقهالسياسيةوابعادةالحضارية،القاهرةلا.ت،ص ٣٦٦.
٢٨. الحروبالصليبية،ترجمةشكريمحمودنديم،شركةالنبراسوفرانكلي،بغداد-١٩٦٧م،ص.٣٤
٢٩. الحميدة،الحروبالصليبية،ج١،ص٤٦؛
٣٠.رنسيمان،تاريخالحروبالصليبية،ج١،ص١٣٧؛عاشور،الحركةالصليبية،ج١،ص.٤٣
٣١. الحميدة،الحروبالصليبية،ج١،ص٤٦؛
٣٢. عاشور،الحركةالصليبية،ج١،ص٤٢-.٤٣
٣٣. السامرائيواخرون،تاريخالدولةالعربيةالاسلامية،ص٢٥٨،
٣٤. عاشور،الحركةالصليبية،ج١،ص.٣٨
٣٥. كوبلاند،ج.د،الاقطاعوالعصورالوسطىفيغرباوربا،ترجمةمحمدمصطفىزيادة،القاهرة - ١٩٤٦م،ص.٢٢
٣٦. عاشور،الحركةالصليبية،ج١،ص٣٨-٤٠،
٣٧. فهميتوفيقمحمدمقبل،،شخصيةالدولةالفاطميةفيالحروبالصليبية،لا.م،لا.تص١٨-.١٩
٣٨. هوابنتغربيردي،النجومالزاهرة،ج٥،ص.١٢٤
٣٩. هوأبنخلكان،ابوالعباسشهابالديناحمدبنمحمد(ت:٦٨١هـ/١٢٨٢م)،وفياتالاعيانوانباءابناءالزمان،تحقيقاحسانعباس،بيروت.لا.ت،ج٥،ص١٢٥؛
٤٠. ابنكثير،ابوالفداءاسماعيلبنعمر (ت:٧٧٤هـ/١٣٢٧م)،
٤١. البدايةوالنهاية،تحقيقاحمدابوملحمواخرون،بيروت-١٩٨٧م،ج١٢،ص١٥١-.١٥٣
٤٢. مقبل،شخصيةالدولةالفاطمية،ص.١٩
٤٣.سبطابنالجوزي،ابوالمظفرشمسالدينيوسفبنقزاوغلي(ت:٦٥٤هـ/١٢٥٦م)،مرآةالامانفيتاريخالاعيان،حيدراباد‌الدكن- ١٩٥١م،ج٨- ق١،ص١٣؛
٤٤. ابنالاثير،عزالدينابوالحسنعلي(ت:٦٣٠هـ/١٢٣٢م)،الكاملفيالتاريخ،بيروت-١٩٧٨م،ج٨،ص٢٢٣-٢٢٤؛
٤٥. ابنخلكان،وفيات،ج١،ص.١١٠
٤٦.ابنالاثير،التاريخالباهرفيالدولةالاتابكيةبالموصل،تحقيقعبدالقادراحمدطليمات،القاهرة-١٩٦٣،ص١٢؛
٤٧. الكامل،ج٨،ص١٦٤-١٦٥؛
٤٨. حسينامين،،تاريخالعراقفيالعصرالسلجوقي،بغداد-١٩٦٥م،ص١١٤-.١١٨

٤٩. ابنالاثير،الكامل،ج٨،ص١٧٥؛
٥٠. ابنخلكان،وفيات،ج١،ص٩٦؛
٥١. ابنكثير،البدايةوالنهاية،ج١٢،ص.١٥٩
٥٢.
القلانسي،ابويعليحمزة(ت:٥٥٥هـ/١١٥٥م)،ذيلتاريخدمشق،مطبعةالاباءاليسوعيين، بيروت-١٩٠٨م،ص١٢٣-١٢٤، ١٢٦، ١٢٨-١٢٩؛
٥٣. ابنالاثيرالتاريخالباهر،ص٩،
٥٤. الكامل،ج٨،ص١٦٦-١٦٧، ١٧١-١٧٥؛
٥٥. ابنالعديم،ابوالقاسمكمالالدينعمر
(ت:٦٦٠هـ/١٢٦١م)،زبدةالحلبفيتاريخحلب،تحقيقساميالدهان،دمشق-١٩٦٨م،ج٢،ص١٠٧-١١٣، ١١٧-١١٩،
٥٦.ابنواصل،جمالالدينمحمدبنسالم(ت:٦٩٧هـ/١٢٩٧م)،مفرجالكروبفيدولةبنيايوب،تحقيقجما لالديناالشيال،مصر-١٩٥٣م،ج١،ص٢٢-.٢٣
٥٧. سبطابنالجوزي،مرآةالزمان،ج٨- ق١،ص١١١،
٥٨. ابنتغريبردي،النجوم،ج٥،ص.٢٠٥
٥٩. سبطابنالجوزي،مراةالزمان،ج٨- ق١،ص١١١؛
٦٠. ابنتغريبردي،النجومالزاهرة،ح٥،ص.١٨٩
٦١.ياقوتالحموي،ياقوتعبداللهالحمويالروميالبغدادي(ت:٦٢٦هـ/١٢٢٨م)،معجمالبلدان،دار صادر،بيروت،لا.ت،ج٤،ص.٤١٥
٦٢. سبطابنالجوزي،مراةالزمان،ج٨-ق١،ص٢٢؛
٦٣. ابنالاثيرالكامل،ح٨،ص.٢٤١
٦٤. ابنخلكان،وفيات،ج٢،ص٤٢٧-٤٢٨؛
٦٥. ابنتغريبردي،النجومالزاهرة،ج٥،ص٣٢٦-.٣٢٧
٦٦. عاشور،الحركةالصليبية،ج١،ص١١٤
٦٧. ابنالاثيرالكامل،ج٨،ص.٢٢٧
٦٨. سبطابنالجوزي،مرآةالزمان،ج٨- ق١،ص٣٠؛
٦٩. ابنتغريبردي،النجومالزاهرة،ج٥،ص١٦٨٠-.١٦٩٠
٧٠. ابنالقلانسي،ذيلتاريخدمشق،ص١٣٤؛
٧١. ابنالعديم،زبدةالحلب،ج٢،ص.١٢٤
٧٢. ذيلتاريخدمشق،ص١٣٤-.١٣٥
٧٣. ابنخلكان،وفيات،ج١،ص٣٧٥-٣٨٠،
٧٤. عليابراهيمحسن،،تاريخجوهرالصقلي(قائدالمعزلديناللهالفاطمي)،القاهرة-١٩٦٣م،ص٩-١٧.
٧٥.محمدجمالالدينسرور،،النفوذالفاطميفيبلادالشاموالعراقفيالقرنينالرابعوالخامسالهجريين،القاهرة-١٩٥٩م،ص١٦-١٧

٧٦. سيدعبدالعزيزسالم،،دراسةفيتاريخمدينةصيدافيالعصرالاسلامي،بيروت-١٩٧٠م،ص٨٢؛

٧٧. محمودسعيدعمران،،الحملةالصليبيةالخامسة (حملةجانديبرينعلىمصر ٦١٥-٦١٨هـ/١٢١٨-١٢٢١م)،الاسكندرية-١٩٧٨م،ص.٢٤

٧٨. المقريزي،تقيالديناحمدبنعلي(ت:٨٤٥هـ/١٤٤١م)،اتعاظالحنفاباخبارالائمةالفاطميينالخلفا،تحقيقحلميمحمداحمد،مصر-١٩٧١م،ج٢،ص١٨٤-٣٣٤.

٧٩. ابنخلكان،وفيات،ج١،ص١٨٧؛

٨٠. المقريزي،اتعاظالحنفا،ج٢ ص١٥٢؛

٨١. ابنتغريبردي،النجومالزاهرة،ج٥،ص.١٤٠

٨٢. ابنالصيرفي،ابوالقاسمعليبنمنجب (ت:٥٤٢هـ/١١٤٧م)،الاشارةلمنناالوزارة،تحقيقعبداللهمخلص،بغداد- لا.ت،ص٥٧-٥٩؛

٨٣. ابنخلكان،وفيات،ج٢،ص٤٤٨-٤٥٢.

٨٤. ابنالقلانسي،ذيلتاريخدمشق،هامشص١٢٨-١٢٩،

٨٥. ابنحماد،ابوعبداللهمحمدبنعلياالصنهاجي (ت:٦٢٦هـ/١٢٢٨م)،اخبارملوكبنيعبيدوسيرتهم،تحقيقجلولمحمدالبدوي،الجزائر،لا.ت،ص٢٧؛

٨٦.ابنواصل،مفرج،جـ٢ ،صـ٤٠٧.

٨٧.أبوالفداء،المختصر،جـ٢ ،صـ٢٥٧.

٨٨.الذهبي،سير،جـ١٦ ،صـ٣٠٧-٣٠٨.

٨٩.ابنالفرات،تاريخ،مج٤ ،ق٢ ،صـ٨٩.

٩٠.العليمي،الأنس،جـ٢ ،صـ١٧٧-١٧٨.

٩١.شهابالدينأبيالفلاحعبدالحيبنأحمدبنمحمدالحنبليبنالعماد (ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م) ، "شذراتالذهبيفيأخبارمنذهب" ، ٨ أجزاء،تحقيقمصطفىعبدالقادرعطا،ط١ ،دارالكتبالعلمية،بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م،جـ ٥ ،ص ٢٦٦ .

٩٢.شمسالدينيوسفسبطبنالجوزي (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م) ، "مرآةالزمانفيتاريخالأعيان" ،حيدرأباد، ١٣٧٠هـ/١٩٥١م،جـ ٨ ،ص ٦٣٠-٦٣١ .

٩٣.سبطبنالجوزي،مرآةالزمان . ،صـ١٣٨-١٣٩.

٩٤.الذهبي،سير،جـ١٦ ،صـ١٧٧.

٩٥.الأسنوي،طبقات،جـ٢ ،صـ٩٧.

٩٦.العليمي،الأنس،جـ٢ ،صـ١٨٠-١٨١.

٩٧.أبوشامة،تراجم،صـ١٤٥.

٩٨.ابنخلكان،وفيات،جـ٣ ،صـ٤٢٠-٤٢١.

٩٩.الذهبي،العبر،جـ٣ ،صـ١٨٨.

١٠٠.ابنالعماد،شذرات،جـ٥ ،صـ١٩٥

١٠١.العليمي،الأنس،جـ٢ ،صـ٩٧.

١٠٢.ابنواصل،مفرج،جـ٤ ،صـ٢١١

Abstact

The jurists played their leading role in the resistance that dominated the people of Syria in the Ayyubid era, based on their understanding and understanding of the cornerstone of jihad, which was established by Islam as a basic concept and duty of all Muslims, their scientest and their ignorant.

The fuqaha 'joined the Islamic Army as volunteers, beating the example and the good example of jihad to the general Muslims, especially in the battle to liberate the city of Jerusalem under the leadership of hero Salah al-Din